

الدرس الثامن: الموضوعية والذاتية في التاريخ.

أولاً. موضوع التاريخ:

يهدف التاريخ باعتباره علماً إلى التعرف على الأحداث وإيجاد تفسيرات لها في مجالات معرفية متنوعة تبعاً لأوجه النشاط الإنساني المختلفة، لذلك فهو اختصاص له أدواته، قواعده ومنهجه، وباعتبار انفراده بسعة الموضوعات العلمية فيجب على المؤرخ أن يلتزم بها.

ومن الخصائص التي يتميز بها علم التاريخ عن بقية العلوم أن جميع العلوم لا تعمل إلا في نوع واحد من الظواهر، بينما نجد التاريخ يدرس في آن واحد نوعين من الوقائع المختلفة كل الاختلاف، وقائع مادية تعرف بالحواس (أصول مادية وأفعال الإنسان)، ووقائع نفسية (عواطف، أفكار، ودوافع لا يدركها إلا الشعور، ولا سبيل إلى الإضراب عنها لأنها توحى للناس بسلوكهم وتقتاد أفعالهم الحقيقية)

ثانياً. الحقيقة التاريخية:

إذا كان من الصعب كشف الوقائع ذات الطبيعة النفسية في الماضي نظراً لطغيان عنصر الزمن، واستحالة إخضاعها للملاحظة، أو التمويه عن المعاني بالقول المتكلف والنص المتصنع أو الكذب والتزوير، هذه التساؤلات كلها تأتي ضمن شروط الكتابة المنهجية في علم التاريخ، الذي يجب أن يجيب عنها بواسطة شروط وضوابط علمية وثيقة تتمثل أساساً بنقد الوثائق المدروسة والمحققة، ورغم هذا كله يظل عمل المؤرخ عملاً ذهنياً تلتبس فيه الذاتية والموضوعية، ويتداخل فيه الماضي والحاضر والأيديولوجيا وتشابك النظرة للمفاهيم والرؤى وتقاطعها.

هذا ما يجعل الحقيقة التاريخية التي يطمح المؤرخ في الوصول إليها ليست بأي حال من الأحوال حقيقة مطلقة وإنما نسبية، لأن ما نصل إليه من تصورات أحداث الماضي هو في الواقع حقيقة صحيحة نسبياً، إذ كلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من أن يصبح تاريخاً بالمعنى الصحيح.

ثالثا. التاريخ بين الذاتية والموضوعية:

إن الحادثة التاريخية في نظر العلم ظاهرة موضوعية لا نستطيع دراستها إلا إذا بعثت كما هي على حقيقتها، وهذا شيء مستحيل بالنسبة إلى ما مضى من الأحداث، وبالتالي فإن أغراض الدراسة التاريخية هو بعث الماضي في صورته الحقيقية كما نتصوره لا كما وقع بالفعل، أي البحث عن الحقيقة الممكنة وليس كل الحقيقة، وهو ما يجعل كل ما نتوصل إليه من دقائق تاريخية تصورا شخصيا وذاتيا للماضي لأن الحادث مهما خضع لمواصفات المنهجية وتقييد بطرقها لا يمكن إعادته كما وقع فعلا، وإنما نعيد تصوره من خلال فهمنا للماضي انطلاقا من ثقافتنا وميولنا وموقفنا من الأحداث، هذا ما يجعل التاريخ وإن كان مستمدا من أخبار الماضين، ومنطلقا من أحداث وقعت بالفعل يتم من خلال ذات المؤرخ أراد ذلك أم لم يرد، هذا ما يجعل الموضوعية المطلقة بعيدة عن التحقق، وهذا ما يؤدي حتما إلى الغلط في بعض جوانب الحقيقة التاريخية المنشودة.

رابعا. الموضوعية وأهميتها ضمن مواصفات ومؤهلات المؤرخ: تخضع الحقيقة التاريخية والموضوعية خضوعا تاما لمؤهلات ومواصفات المؤرخ، فهي التي تتحكم إلى حد كبير في تقييمه وصياغته للأحداث التاريخية، وحكمه عليها، إذ يفترض أن يكون للباحث مؤهلات شخصية وظروف موضوعية تمكنه من تقييم الحقيقة التاريخية النسبية والتزام الموضوعية حسب الشروط والظروف التي يعيشها والتي تطبع عمله، وإلا عدت كتابته من ضرب الحكاية والأسطورة والزيف والكذب وهذا ما عبر عنه عبد الرحمان ابن خلدون في وصفه لجموع المؤرخين في عصره ممن تساهلوا في إبراز الحقيقة التاريخية الموضوعية: "...فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب قليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الأدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض طويل..."، ويقول أيضا: "إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها،... وخطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى

تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها"

ومن هذه المنطلقات فإذا كانت الموضوعية هي إدراك الأشياء على ما هي عليه، دون أن تشوهها نظرة ذاتية ضيقة أو أهواء أو ميول أو مصالح أو جهل عن المقاصد، أو تحيز بحب أو كره، ووصف الشخص بالموضوعية تعن أنه اعتاد على جعل أحكامه تستند على النظر إلى الحقائق على أساس العقل، ومعرفة كل الملابسات والظروف والمكونات المحيطة بالحادثة، ومن هنا يمكننا أن نبرز الموصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤرخ فيما يلي:

- عدم التحيز للسلطان والتجرد من الميول الشخصية: فيمكن للمؤلف أن يعطف أو يكره جماعة، أمة، حزبا، توجهها، أسرة، مدينة ... فيحمله ذلك على تشويه الوقائع ابتغاء أن يعطي فكرة حسنة عن أصدقائه وسيئة على خصومه، وهذا ما عبر عنه عبد الرحمان بدوي بقوله: أن يكون المؤلف قد انساق وراء غرور فردي، أو جماعي، فيكذب ابتغاء تمجيد شخصه أو الجماعة التي ينتمي إليها، وقال ما اعتقد أن من شأنه أن يحدث في القارئ تأثيرا ينطوي على ما يؤكد أنه هو وبني جماعته كانوا نو مناقب جلية".

- الإحساس النقدي شرط الموضوعية: وهذا ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: التشيعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه في التمهيص والنظر حتى تتبين صدقه من الكذب، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك التشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في الكذب ونقله"

- الأمانة والنزاهة والإخلاص والزهدي في الشهرة: وعدم السماح لنفسه باستغلال جهود الآخرين وسرقتها وتبنيها.

- استبعاد الإيديولوجيا ...

- إضافة إلى الاستعداد النفسي، الصبر والمثابرة، الأصالة، إتقان لغة المصادر، المنهجية، روح البحث وشغفه، الموهبة ، ...

خامسا. إلى أي حد يمكن للمؤرخ أن يتخلص من الذاتية في التاريخ: إذا أيقنا بأن التاريخ علم إنساني يدرسه الإنسان ويتفاعل مع الماضي باعتباره إنسانا، فإن صفة الذاتية تبقى ملازمة له، أصيلة فيه، وعليه أن يحاول تطويعها للموضوعية لا نفيها وهذا ما عبر عنه بول ريكور بقوله: نريد من التاريخ أن يكون إنسانيا، يعمل على مساعدة القارئ الذي تعرف على تاريخ المؤرخين على بناء ذاتية نزيهة، ذاتية لا ترتبط بالذات نفسها بل بالناس ككل، ويقول أيضا: "نريد من التاريخ شكلا من الموضوعية يتوافق مع طبيعته وخصوصيته"، ويقول أيضا: "إننا نريد من المؤرخ شكلا محددًا من الذاتية، ولكن ليست أي ذاتية، إنما هي ذاتية تتوافق مع دقة موضوعية التاريخ،... فنحن نؤمن بأن هناك نوعين من الذاتية، إحداهما إيجابية والأخرى سلبية"

مراجع حول الدرس:

- 1- قاسم يزبك: التاريخ ومنهج البحث التاريخي، ط. 1، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1990.
- 2- عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، المركز العربي، ط. 4، الدار البيضاء، المغرب 2005.
- 3- ناصر الدين سعيدوني: أساسيات منهجية التاريخ، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000
- 4- حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، دار المعارف، ط. 8، القاهرة، 2000.
- 5- يزبك قاسم: التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني، ط. 1، بيروت، لبنان، 1990.
- 6- عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
- 7- عبد الرحمان بدوي: النقد التاريخي، وكالة المطبوعات، ط. 4، الكويت، 1971.